ذهب الدكتور علي عيسى عثمان إلى الغرب ليدرس طرائق مكافحة الإسلام على أيدي المستشرقين، لأنه كان يراه سبب تخلف الأمة، فعاد مؤمناً بأنه لا خلاص للعالم إلا بالإسلام، وألَّف كتاب (**لماذا الإسلام؟ وكيف؟**) وفي ما يأتي **مقدمة الكتاب:**

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، رسول الله وخاتم النبيين.

في استكشاف ما هو الإسلام

١ – بدأ اهتمامي بدراسة الإسلام بعد عام ١٩٤٨ من موقف اتهام الدين بأنه المسؤول عن تخلف الأمم، واتهام الإسلام بالتالي بأنه المسؤول عن تخلف العرب وعن عجزهم في إنقاذ فلسطين من الاستعمار اليهودي.

وانتهت دراساتي، وبعد سنوات كثيرة، إلى أن الإسلام، من بين الأديان والحضارات التي عرفها الإنسان، القديمة والحديثة، خير ما يمكن أن يتوجه به الإنسان في حياته الشخصية، وخير ما يمكن أن تتوجَّه به الأمة في إدراك واقعها وفي تغييره وتطويره، وخير ما يمكن أن يتوجه به العالم في بناء نظام عالمي جديد.

وما انتهت إليه هذه الرحلة، بعد الموقف الأول من هذين الموقفين، هو موضوع هذا الكتاب.

كنت قد سافرت إلى أميركا طلباً للعلم في خريف ١٩٤٧. واكتشفت، بعد أن حدث ما حدث في فلسطين في عام ١٩٤٨، أن طلبي للعلم كان مرتبطاً بأرض فلسطين وبأهل فلسطين. ولما ضاعت فلسطين ضاعت مني الأهداف التي كنت أرجوها من طلب العلم. ولولا أنَّ ما صار يعرف «بالقضية الفلسطينية» كانت قضية ساخنة في تلك الفترة، وكان الطلب على بيان الموقف العربي منها في تزايد، لما وجدت لنفسي مخرجاً من ذلك الضياع. تحولت بلادنا فلسطين إلى قضية بين طرفين، الطرف العربي والطرف اليهودي! ووجدت نفسي منشغلاً بالكلام عن الموقف العربي في الجمعيات وفي الجامعات، وبالكتابة في الصحف وفي المجلات، وبالأحاديث في الإذاعات (لم يكن التلفزيون قد انتشر بعد). وفي عام ١٩٥٠ ومع بعض الطلبة العرب أنشأنا «منظمة الطلبة العرب في أميركا» لتكون هي المؤسسة الإعلامية في مواجهة الإعلام اليهودي في جميع أنحاء أميركا.

كل ذلك ظناً منا أن تعرُّف الأميركيين على الجانب العربي من «القضية» سيكون له آثاره الحاسمة في تغيير سياسة أميركا في فلسطين للصالح العربي. هذا إلى أن أدركت بعد سنوات من الانشغال «بالقضية» أنه لو عَرف كل أميركي عن قضية فلسطين ما كنت أعرفه عنها أنا، لما كان لذلك أثر يذكر في تغيير سياسة أميركا وفي مواقفها من فلسطين. وأرسلت إلى جامعة الدول العربية في عام ١٩٥٦ مذكرة مفصلة أبيِّن فيها هذا الموقف الذي انتهيت إليه، شرحت فيها العوامل الدينية والسياسية والإعلامية التي تحكم السياسة الأميركية، وأشرت فيها إلى أن أطماع أميركا في البلاد العربية تبقى في مأمن بالمحافظة على دولة اليهود في فلسطين وبمدها بالقوة اللازمة لذلك، وإلى أن سياسة أميركا هذه سوف لا تتغير إلاّ بعد أن يتعلّم العرب كيف يفرضون إرادتهم على أميركا في ما يريدونه لأمتهم.

٢ – ومع كثرة انشغالي بالكلام وبالكتابة عن «القضية»، إلا أن رغبتي في فهم، وفي تفسير فشل العرب في إنقاذ فلسطين كانت هي المحرك الأقوى في توجيه اهتماماتي الفكرية والعلمية. فبعد أن كنت أتممت المقررات من المواضيع الجامعية لدرجة الدكتوراه في جامعة سيراكيوز، في أواخر ١٩٤٩، عدلت عن تحصيل تلك الدرجة وانتقلت إلى جامعة شيكاغو لوجود معهد للدراسات الشرقية فيها لعلِّي أجد هناك من المراجع ما يعينني على التوصل إلى ذلك الفهم والتفسير. وفعلاً وجدت أن مكتبة ذلك المعهد كانت غنيَّة بالمراجع الإسلامية القديمة والمعاصرة.

وكانت قناعتي بأن الدين هو المسؤول عن تخلف الأمم من بين القناعات الراسخة في تفكيري في تلك المرحلة.

فالتحقت بجامعة شيكاغو لدراسة الإسلام، لا لأتعرف عليه، ولكن لأفتِّش عما فيه من خصائص تسبِّبُ التخلف في مَنْ يؤمنون به ويتَّبعونه. وأقبلت بنهم شديد على قراءة ما كتبه المستشرقون عن الإسلام وعن العرب والمسلمين. أقبلت على قراءة هؤلاء بدافع قناعة أخرى كنت قد اكتسبتها في رحلتي الطويلة في طلب العلم ابتداء من المرحلة المدرسية. وكغيري من أبناء جيلي الذين تخرجوا من المدارس التبشيرية ومن الجامعات الأميركية (وغيرها من الجامعات الغربية) خرجت بمجموعة من القناعات كان من بينها أن الغربيين هم موضع الثقة في ما يبحثون عنه وما يدرسونه لما عرف عنهم من جلد وموضوعية.

ولكن تلك الثقة بدأت تتبدد في نفسي شيئاً فشيئاً، ووجدتني لا أرتاح لما يقولونه من أشياء عن العرب وعن المسلمين والإسلام، كنت أعرفها معرفة شخصية بالخبرة والنشأة في بيئة عربية إسلامية.

٣ – فتركت كتابات المستشرقين، وأقبلت على قراءة المصادر العربية، وبدأت بقراءة مَنْ ذُكِرت أسماؤهم وكتاباتهم من علماء الإسلام في كتابات المستشرقين. وبعد تلك المرحلة الاستطلاعية وقفت في النهاية عند كتابات أبي حامد الغزالي (المتوفى ٥٠٥ هـ – ١١١١ م).

كانت كتابات الغزالي محطة حاسمة في تكويني الفكري تلاشت بعدها قناعاتي السابقة. فلقد صاحب ما كنت أتعلمه من الغزالي ومن غيره من علماء الإسلام التبصر من جديد في تلك القناعات، وصرت أنا نفسي موضوعاً للبحث، أتقصى لنفسي به جذور تلك القناعات في نموي الفكري.

وتبين لي أن تلك القناعات السابقة كانت هي القوالب الفكرية التي كنت أحكم بها على الدين عامة وعلى الإسلام خاصة، والتي كنت أدرك بها واقع أمتي، والتي كانت وراء ما كنت أتمناه لأمتي، ووراء رغبتي في نقل الحضارة الغربية وبكل إنجازاتها الفكرية والعلمية والأدبية والسياسية وغيرها إلى واقع أمتي بديلاً عن الواقع المتوارث.

وبعد التبصر الطويل في ما حدث في نفسي من قناعات، انكشف لي فعل حياتي التعليمية في اكتساب تلك القناعات. أدركت أن تعليمي كله من أوله، في مدرسة تراسانطة التبشيرية بالقدس، إلى آخره في أميركا مروراً بالجامعة الأميركية بالقاهرة، كان خالياً خلواً تاماً من أية معرفة بالإسلام أو بالحضارة الإسلامية. وتذكرت أن موضوع التاريخ في المرحلة الابتدائية كان كله قصصاً مأخوذة من كتاب اليهود (العهد القديم). وتذكرت أن الجامعة الأميركية التي كانت القاهرة مقراً لها لم يكن في مناهجها التعليمية شيء عن العرب أو المسلمين ولا حتى عن مصر.

هذا، بالاضافة إلى أن حركات الكفاح الحزبية ضد الاستعمار وغيرها كانت في ذلك الحين، تدعو إلى نهضة عربية تقوم على الأسس التي قام عليها التقدم في الغرب، أي إلى التحرر من قيود الدين والقيود التقليدية. وكانت النماذج البشرية العربية التي برزت في عهد الاستعمار لا تختلف عن النماذج الأصلية في المجتمع الغربي في حياتها اليومية، حتى صارت عبارة «حاجة بلدي» في مصر تشير إلى التخلف لمجرد أنه يختلف عن الممارسات الغربية، ولا يعد العربي من «المثقفين» إلا بقدر انسلاخه عن التقاليد الدينية والتقليدية.

٤ – كان اكتشاف الغزالي منعطفاً كبيراً في حياتي النفسية والفكرية والانتمائية. فبعد أن كنت قد قرأت كتب فلاسفة اليونان والفلاسفة الغربيين على أيدي من كان حجة في دراسة فيلسوف من هؤلاء. وبعد أن كنت قد تبصرت بمناهج العلوم الاجتماعية والعلوم الحضارية في دراسة المجتمعات البشرية ودراسة الحضارات، لم أكد أصدق أن عالماً من علماء الإسلام قد تعمق في دراسة فلسفة المعرفة بالقدر الذي توصل إليه الغزالي، أو بالسعة في الإحاطة بما في هذه الفلسفة من قضايا. فوقفت وقفة طويلة معه ومع شيوخه الذين ذكرهم في كتاباته أمثال المحاسبي وغيره من أئمة علماء الإسلام، فلم أتعرف على ما هو الإسلام من هؤلاء العلماء فقط، ولكنني، وفي موازاة ذلك التعلم، تحررت مما فعله ماضيّ في فكري وفي نفسي، وقررت أن تكون نظرة الغزالي إلى الإنسان وإلى المعرفة موضوع رسالة الدكتوراه.

ونشرت تلك الرسالة (باللغة الإنكليزية) بدار المعارف بمصر في عام ١٩٦١، ثم طلبت من المرحوم خيري حماد أن يترجم ذلك الكتاب إلى العربية (بإشرافي) في ١٩٦٤، ونشرت الترجمة بعنوان «الإنسان عند الغزالي» في ١٩٦٤.

عدت إلى مصر في ربيع ١٩٥٧، بعد غياب عشر سنوات في أميركا عن البلاد العربية، عدت نائباً لمدير مركز اليونسكو الإقليمي بسرس الليان بمصر. وكانت مهمة ذلك المركز تدريب الموظفين من مختلف البلدان العربية في مناهج وأساليب تنمية «المجتمع المحلي» (أي تنمية القرى). فكانت تلك الوظيفة فرصة عظيمة للتعرف على واقع البلاد العربية من هؤلاء الموظفين ومن زياراتي لتلك البلاد ولقاءاتي بالمسؤولين فيها.

وتوطدت بيني وبين الحاج صبيح، صاحب مكتبة صبيح بالقرب من الأزهر، صداقة متينة. فكنت أزوره في مكتبته كل يوم جمعة وأطلب منه أن يوفر لي أمهات الكتب في التفسير وفي السنَّة وفي اللغة وفي مختلف مجالات الفكر الإسلامي، فتكونت لدي بفضله مكتبة إسلامية تفي بأغراضي.

٥ – وانصرفت في تلك السنوات إلى دراسة القرآن والسنة.

واكتشفت بعد المضي في استكشاف نظام الدين الذي نزل به القرآن الكريم أن التقاط المنهج الذي يكشف عن ذلك النظام أهم قضية من قضايا الفكر الإسلامي المعاصرة والمفتاح للتعرف على ما هو الإسلام.

والمنهج المطلوب ليس وصفة جاهزة ومهيأة للتطبيق. وبعد قراءات كثيرة للقرآن الكريم كان من أهم القضايا التي برزت لي استكشاف منهج القرآن نفسه في دعوة الإنسان إلى الإسلام.

ما هو منهجه في دعوة الإنسان إلى الإسلام قبل إسلام هذا الإنسان؟

وما هو منهجه في دعوته بعد إسلامه؟

وكانت تلك الأسئلة مفتاحاً لتتبع القرآن الذي يخاطب الإنسان قبل إسلامه، بغرض التقاط الأصول التي تقوم عليها دعوة هذا الإنسان إلى الإسلام، ثم لتتبع القرآن الذي يخاطب من أسلم من الناس، وأيضاً بغرض التقاط الأصول التي تبين لهم ما يطالبهم به الإسلام بعد إسلامهم.

وانكشف لي بهذا المفتاح أبواب أساسية في عمليات استكشاف الأصول التي تقوم عليها دعوة الإنسان إلى الإسلام في القرآن الكريم. وكان من أهم ما استوقفني في القرآن الذي يخاطب الإنسان قبل إسلامه حرصه الشديد على تعريف ما هو الإنسان.

لماذا هذا الحرص؟ وما الحكمة فيه؟ وما هي أهمية هذا التعريف في دعوة الإنسان إلى الإسلام؟ وهل له أهمية في بيان ما هو هذا الإسلام؟

وفي الوقوف عند مضمون هذا التعريف تكشفت لي قضايا في غاية الأهمية في تعريف ما هو الإسلام.

فهذا التعريف مجرد من كل الاختلافات الظاهرة بين البشر، أي أن الإنسان لا يعرف كما هو في حقيقته بها أو بأيّ منها. فلا يعرف بذكورته (أو أنوثته) ولا بعرقه والشعب الذي يولد فيه، ولا بلونه أو بلغة جماعته، ولا حتى بالمكان أو الزمان الذي يعيش فيه.

ومقابل هذا التجريد في تعريف ما هو الإنسان، بيَّن القرآن ما هو في حقيقته، وبيَّن أن هذه الحقيقة واحدة في كل إنسان وفي كل جماعة بشرية وفي كل عصر من الإنسان الأول إلى آخر إنسان، وأن هذه الحقيقة هي في الفطرة الخاصة التي فطر الله الإنسان عليها، وفي ما هذه الفطرة من قوى فطرية يولد بها كل إنسان.

هذه القوى هي التي يخاطبها القرآن، وبمخاطبتها يخاطب كل إنسان ويتوقع منه فهم الخطاب والمشاركة في ما يدعو إليه القرآن. والدين الذي يريده للإنسان يريده لكل إنسان لوجود هذه الفطرة الواحدة في كل إنسان.

وتبين لي، على أساس هذا التعريف، أن الأديان التي تقوم على واحد أو أكثر من الاختلافات الظاهرة بين البشر أديان تنكر أن الإنسان واحد في كل البشر، ولا تقوم على حقيقة الإنسان، وأن الأديان التي لا يتم الإيمان بالله فيها إلا بوسيط من خارج الإنسان تنكر أهمية وجود القوى المعرفية في الإنسان.

وفي تتبعي لهذا التعريف رأيت أن القرآن يدعو الإنسان إلى معرفة الحقيقة في الإنسان وفي كل شيء في الكون، وأن انشغال قوى الإنسان المعرفية بهذه المعرفة هي ما يكشف له عن حقيقة هذه القوى المعرفية في نفسه، وهو ما يكشف له عن خالق هذه الحقيقة.

وهنا رأيت أن القرآن عزل موضوع العلم الذي تطلب به معرفة الله تعالى عن علم الجماعة التي يولد وينشأ فيها. فكما عزل حقيقة الإنسان عن هوية الجماعة التي يولد وينشأ فيها، فكذلك عزل موضوع العلم عن تراث تلك الجماعة.

وهكذا يقوم الدين في الإسلام على أصول من خارج تراث الجماعة. يقوم على حقيقة الإنسان الواحد في كل إنسان، وعلى علم الحقيقة خارج تراث الجماعة.

وهذا المنهج يجعل التوحيد مطلباً يطلبه الإنسان بوعيه بقواه الفطرية، ويطلبه بكيفية تشغيلها في معرفة آيات الله تعالى في الإنسان وفي كل شيء.

وهذا هو المنهج الذي طلبت به بيان ما هو الإسلام في هذا الكتاب.

أبواب هذا الكتاب

قسمت هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب.

وكان الغرض من الباب الأول بيان ما هي الأصول الأولية التي يتميز بها الدين في الإسلام، وبيان أن الإسلام لا يعرف إلا بمعرفتها، ولا يتم توظيفه إلا بتوظيفها.

واستعرضنا في هذا الباب رؤية القرآن لتاريخ الإنسان، وأن هذا التاريخ لا يعرف ببناء الإمبراطوريات والحروب... ولكنه يعرف في الصراع الشديد بين دعوة الإنسان في كل جماعة بشرية إلى التحرر من سلطان الجماعة التي ينشأ فيها ومن سلطان تراثها بطلب معرفة الله تعالى، وبين حرص الفئة الحاكمة (الملأ) على صد الناس عن هذه الدعوة للمحافظة على سلطانهم في المجتمع وعلى مصالحهم وامتيازاتهم.

وفي هذا الباب وقفنا طويلاً عند رسالة إبراهيم عليه السلام، وعند المنهج الذي أسلم به وجهه لله تعالى. وبيَّنا لماذا يرفض القرآن اعتبار اليهود بأنهم «ذرية» إبراهيم في العقيدة.

أما في الباب الثاني فكان التركيز فيه على بيان رسالة محمد (ص) وبيان ما انفردت به في نظرتها إلى الإنسان وإلى العلم وإلى التوحيد، وذلك لأهمية هذه الأصول في تعريف ما هو الإسلام؟ وفي بيان عالميتها وصلاحيتها لكل مكان وزمان، ولأهميتها في توظيف الإسلام في حياة الإنسان وفي حياة الأمة والبشرية.

وفي الباب الثالث بيَّنا ما هي الأصول التي ينبغي أن يقوم عليها نظام التربية ليكون نظاماً إسلامياً، وما هي الأصول التي ينبغي أن يقوم عليها نظام في الحكم ليكون نظاماً إسلامياً. ووقفنا، في النهاية، عند رؤية أبي بكر للنظام السياسي الإسلامي لقناعتنا بأن تلك الرؤية هي ما يترجم مقاصد الإسلام في حياة المجتمع وفي حياة الأمة.

ويطيب لي في هذه المناسبة أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الآنسة سناء حمودي لما بذلته من جهد كبير في طباعة هذا الكتاب على الكومبيوتر ليصبح جاهزاً لتقديمه إلى دار للنشر.

وأخيراً أرجو أن يلقى هذا الكتاب في تعريف ما هو الإسلام ما يستحقه من اهتمام، وبالله التوفيق.

علي عيسى عثمان بيروت، أيلول ١٩٩٦